إغراء اللغة عند الكاتبة الروائية أحلام مستغانمي

عبد السلام صحراوي
جامعة متنوري. قسنطينة

تفردت الكاتبة والشاعرة الجزائرية "أحلام مستغانمي" وتميزت في تجربتها الكتابية لكونها أول كاتبة جزائرية تخوض مغامرة الكتابة الروائية باللغة العربية، وهي دون شك مغامرة صعبة سيما حين نعلم أن جل الأدباء والأديبات في الجزائر (الجزائريين)كتبوا بالفرنسية وترجمت أعمالهم بعد ذلك إلى العربية.

والأديبة " أحلام " تشير إلى هذا الموضوع إشارة بليغة للغاية حينما تهدي روايتها الأولى " إلى مالك حداد .. ابن قسنطينة، إذ تقول في إهداء روايتها "*ذاكرة الجسد* :

" إلى مالك حداد .. ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته..

فاغتالته الصفحة البيضاء.. ومات متأثرا بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية ، وأول كاتب قرر أن يموت صمتا وقهرا وعشقا لها ."

وتقول أيضا في هذا الإهداء :

وإلى أبي .. عساه يجد هناك من يتقن العربية، فيقرأ له أخيرا هذا الكتاب.. كتابه "

.[1]

وليس عبثا أن تضمن " أحلام " هذا الإهداء لروايتها فالأمر لا محالة متعلق بعشقها وحبها للغة العربية ،وهي تبعا لهذا تتجه نحو خرق القاعدة وتصدر روايتها الأولى باللغة العربية في الجزائر سنة 1993 عن دار الآداب ببيروت، ويعاد طبعها

[1] أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد. دار الأدب بيروت، ط5،1998،ص05

عام 1996 في طبعة ثانية وفي طبعات أخرى فيما بعد. غير أن الطبعة الثانية لرواية "ذاكرة الجسد" يكتب مقدمتها الشاعر العربي الكبير نزار قباني . وبعد سنوات من كتابتها لـ"ذاكرة الجسد" تعود فتطل علينا من جديد برواية ثانية هي " فوضى الحواس" هذا العنوان الثاني لأعمالها الروائية الذي أرادته الكاتبة عنوانا للمرحلة الثانية من عملها الروائي الذي أشارت الكاتبة إلى أنه سيكون على ثلاث مراحل أي في شكل ثلاثية . فهي بذلك تعد بعمل روائي ثالث في المستقبل.

أما" فوضى الحواس" فقد كان صدورها عام 1998 عن دار الأداب ببيروت[2]. وقد اعتمدا هذان العملان الروائيان للتدريس في كثير من الجامعات والمعاهد العربية ، منها جامعة بيروت الأمريكية وكذا معاهد الآداب في الجامعات الجزائرية من خلال اجتهاد بعض الأساتذة والطلاب. كما أن للكاتبة بعض الإصدارات الأخرى خارج الرواية وفي الشعر تحديدا منها " على مرفأ الأيام "- الجزائر 1973 ، و " الكتابة في لحظة عري" عن دار الآداب 1976 ، وكتاب صدر لها في باريس يحمل عنوان " الجزائر-المرأة والكتابة" (سنة 1985).

والمقام هنا لا يتسع هنا للحديث عن مضمون هذين العملين الروائيين لهذه الكاتبة. فليس موضوعنا هو التعرض للمضمون وإنما أردناه حول " لغة الكاتبة في كتابتها الروائية كما هي واضحة في عمليها الروائيين " ذاكرة الجسد" و" فوضى الحواس" . ولعل أفضل ما يلخص مضمون العملين ما قاله نزار قباني عن "ذاكرة الجسد " وهو ينطبق على " فوضى الحواس " لكونها استمرار ومرحلة ثانية لـ " ذاكرة الجسد" قال نزار عن " ذاكرة الجسد" وعن الكاتبة " أحلام" :

" روايتها دوختني. وأنا ناذرا ما أدوخ أمام رواية من الروايات. وسبب الدوخة أن النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق فهو مجنون ، ومتوتر، واقتحامي ، ومتوحش، وإنساني ، وشهواني.. وخارج على القانون مثلي .

---

[2] أحلام مستغانمي " فوضى الحواس" .دار الآداب . ط1 .1998 م

ولو أن أحدا طلب مني أن أوقع اسمي تحت هذه الرواية الاستثنائية المغتسلة بأمطار الشعر... لما ترددت لحظة واحدة .

ويتابع نزار قباني قائلا :

" هل كانت أحلام مستغانمي في روايتها (تكتبني) دون أن تدري.. لقد كانت مثلي متهجمة على الورقة البيضاء، بجمالية لا حد لها .. وشراسة لا حد لها..وجنون لا حد له...

الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور.. بحر الحب ، وبحر الجنس ، وبحر الإيديولوجيا ، وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها و مرتزقيها ، وأبطالها وقاتليها ، وملائكتها وشياطينها ، وأنبيائها وسارقيها ..

هذه الرواية لا تختصر " ذاكرة الجسد " فحسب ولكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري ، والحزن الجزائري والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي ..." [3]

والذي يعود إلى " ذاكرة الجسد" و " فوضى الحواس" سيقف على مدى صدق نزار قباني عندما علق على ما كتبته أحلام بهذه الكلمات الموحية، ويقف على الأحداث التي ضمنتها الكاتبة روايتها . وهي الأحداث التي طبعت تاريخ الجزائر أثناء الثورة الجزائرية المظفرة ،وبعد الاستقلال وصولا إلى الأزمة والمأساة التي لطخت تاريخ هذا البلد الشامخ باسم الديمقراطية والتعددية وإيديولوجيات شرقية وغربية دفعت بأبناء البلاد إلى التناحر، والتطاحن والقتال والاقتتال والسبية كانت "الجزائر" هذا البلد العزيز على قلوب الوطنيين والغيورين، والبلد المقدس في عيون الشهداء الأبرار .

إن ما يهمنا في هذا البحث المتواضع هو الوقوف على لغة الكتابة الروائية لهذه الكاتبة التي فاجأت القراء بعملين روائيين هما مفخرة الأدب الجزائري الروائي. إذ

---

[3] أنظر غلاف رواية أحلام مستغانمي: "ذاكرة الجسد" (بقلم نزار قباني . لندن 9) .ط5.1998 95

تمثل الكاتبة نموذجا فريدا للكتابة الروائية "النسائية" في الجزائر. وهي التي ترفض أن تحاكم ككاتبة وتعتبر مصطلح " الأدب النسائي" نوعا من الإهانة للمرأة إذ تقول في حوار أجرته معها مجلة " زهرة الخليج" : " أنا أريد أن أحاكم ككاتبة بدون تاء التأنيث وأن يحاكم نصي منفصلا عن أنوثتي ، ودون مراعاة أي شيء ." [4].

وتقول في موضع آخر : " إن الكتابة بالنسبة لي متعة، ولا أمارسها إلا من هذا المنطلق... "

غير أن من أجمل ما كتبته فيما يتعلق باللغة والكلمات والكتابة يرد في نصوصها الروائية ومن ذلك ما تحدثنا به في رواية " فوضى الحواس" إذ تقول : " يحدث للغة أن تكون أجمل منا، بل نحن نتجمل بالكلمات، نختارها كما نختار ثيابنا ، حسب مزاجنا ونوايانا ." [1] وتتابع قائلة : " هنالك أيضا، تلك الكلمات التي لا لون لها ذات الشفافية الفاضحة كامرأة خارجة توا من البحر، بثوب خفيف ملتصق بجسدها إنها الأخطر حتما لأنها ملتصقة بنا ، حدّ تقمصنا". [5]

إن عناية الكاتبة بلغتها الروائية يفوق كل توقع ، حتى ليخيل للقارئ أن لغة الخطاب الروائي عند "أحلام" هو موضوع النص ذاته، وهذا ليس غريبا حين نعلم أن الكاتبة عاشقة للغة العربية وهي تريد أن تصل باللغة إلى مجدها أو تعيد لها فطرتها الأولى بعيدا عن الدنس و الابتذال.

وهذا الإحتفال والإحتفاء باللغة في الكتابة الروائية عند أحلام يتبدى في كل مقاطع النصوص التي يصدم بها القارئ وهو يقرأ في "فوضى الحواس" أو في " ذاكرة الجسد". إن " أحلام" يمتد بها سرورها باللغة إلى جعلها " بطل" النص كما يذهب إلى القول أحد الباحثين.[6]

---

[4] [2] أحلام مستغانمي : " فوضى الحواس" .ط1.ص32

[6] عبد الله محمد الغذامي : المرأة واللغة.ط1.1996 .المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء.ص191

وقد ذهب عبد الله الغذّامي [1] في توضيح العلاقة بين الكاتبة أحلام ولغتها الروائية إلى حد القول إن الكاتبة استطاعت أن تكسر سلطة الرجل على اللغة، هذه اللغة التي كانت منذ أزمنة طويلة حكرا على الرجل واتسمت بفحولته، وهو الذي يقرر ألفاظها ومعانيها فكانت دائما تقرأ وتكتب من خلال فحولة الرجل الذي احتكر كل شيء حتى اللغة ذاتها.

وإذا كانت أحلام تريد أن تحاكم ككاتبة بدون تاء التأنيث فإن روايتيها ملتصقتان بالأنوثة وهذا الالتصاق هو الذي جعل عملها الروائي يحظى بالتقدير والتفوق .حيث استطاعت أن تصنع من مادتها اللغوية نصوصا تكسر فيها عادات التعبير المألوف المبتذل وتجعل منها مواد إغراء وشهية، وراحت وهي تكتب تحتفل بهذه اللغة التي أصبحت مؤنثة كأنوثتها ، وأقامت معها علاقة حب وعشق دلاّعلى أن اللغة ليست حكرا على فحولة الرجال بل تستطيع أن تكون أيضا إلى جانب الأنوثة، فصارت اللغة حرة من القيد والطابوهات وصار للمرأة مجال " لأن تداخل الفعل اللغوي وتصبح فاعلة فيه فاستردت بذلك حريتها وحرية اللغة. وكل ذلك من خلال علاقة جديدة حميمية بين المؤلفة واللغة وبالأحرى بين الكاتبة ونسغ الخطاب اللغوي المتألق والمغري كما يبدو عند أحلام.

" فأحلام" هي مؤلفة الرواية، وأحلام هي أيضا بطلة النص ، واللغة فيما كتبته أحلام هي الأخرى بطلة.بحيث أن اللغة الروائية في هذين العملين تطغى على كل شيء وتتحول إلى موضوع الخطاب وموضوع النص. فامتزجت بذلك أنوثة اللغة المستعادة مع أنوثة المؤلفة وكذا أنوثة " أحلام" البطلة في الروايتين ووحدة العلاقة بين الأنثى خارج النص والأنثى التي في داخل النص تعني عضوية العلاقة بين المؤلفة ولغتها.

وتمتد هذه العلاقة من خلال " اتحاد الأنثى (أحلام مع كل العناصر الأساسية في الروايتين فأحلام هي أحلام، وهي المدينة وهي قسنطينة ، وهي البطل وهي

الوطن وهي الذاكرة وهي الحياة ، لأنها في البداية كان اسمها حياة، وهـــي النـــص وهي المنصوص ، وهي الكاتبة وهي المكتوبة وهي العاشقة وهي المعشوقة وعـــي اللغة وهي الحلم وهي الألم لأن الحلم والألم: أحلام تساوي حلم وألم [7].

في الروايتين تحررت المرأة " البطلة " و تحررت معها " اللغة" وتولد من ذلك نص روائي جديد يمجد اللغة بالدرجة الأولى ويحتفي بها..

الأدب فن أداته اللغة، فاللغة هي الأداة الرئيسية لكل خطـــاب أدبـــي، وكيفيـــة وأسلوب التعامل مع اللغة هو الذي يحدد قيمة وطبيعة الخطاب. فعلاقة الأديب بالغة هي في كل الحالات علاقة خاصة واستثنائية ومن هنا تصبح هذه العلاقة الخاصـــة، عبارة عن ممارسة للغة(Une pratique)، تكتسب أبعادا مختلفـــة وترتقـــي إلـــى مستوى الحميمية (L'intimité) ومن ثم فإن الخطاب الأدبي من هذا المنطلق، ومـــن كونه يعتمد على اللغة بل هو اللغة ذاتها يصبح خطابا خاصا باعتبـــار خصوصيـــة العلاقة ما بين اللغة وصاحب الخطاب. وما دام الأدب فن ، فالفن ينتج عادة للتـــأثير في الآخرين شعوريا وجماليا. والجمالية (L'esthétique) لا تتأتى للخطاب الأدبـــي إلا من خلال لغته ، ومن ثم فإن الكتابة الأدبية تتحول لدى الأدباء إلى عملية إغراء[8] " Séduction " عن طريق اللغة " Discours séducteur" التي هي الأداة الأساسية لديـــهم. وهذه العلاقة الخاصة مع اللغة تكتسي أهمية خاصة في التأثير وجلب انتباه الآخرين واهتمامهم ثم تقديرهم.

إن الأدب لا يتأتى له ذلك إلا بفضل ما للغة من إمكانيات هائلة في التعبير التي مصدرها الأساسي هو (المجاز) داخل الاستعمال اللغوي في مجال التعبير الأدبي.

---

[7] أنظر في هذا عبد الله الغدامي : المرأة واللغة.ص192،193

[8] Séduction :Action de séduire-voir les sens du mot séduction et du mot séduire pour pouvoir assimiler et comprendre le sens de ce terme dans la littérature et l'art.

ففي الكتابة الأدبية تتحول اللغة من كونها تؤدي وظيفة الاتصال والإبلاغ فحسب إلى مستويات تعبيرية أخرى، وذلك بتفجير طاقاتها الكامنة عن طريق المجاز وبطرق لم يسبق لها مثيل. ولو أن الأدب كان مجرد أدب عادي لكان ككل كلام .غير أن الأدب هو أن تعبر عن الأشياء على غير منوال سابق وهو "السمو بتعبيرية الأشياء والسعي إلى إحداث عملية تشويش مقصودة في قاموس اللغة..."[9].

والأديبة الروائية " أحلام مستغانمي " تمارس علاقة خاصة مع اللغة، هذه العلاقة الخاصة مع لغتها تجعلها تكسر تلك المعادلة التقليدية والكلاسيكية بين الدال والمدلول، ناهيك أن اللغة في كتابات " أحلام" تتحول إلى أداة "إغراء" (séduction) بامتياز كبير.

إن "أحلام" تتألق في " ذاكرة الجسد " وفي " فوضى الحواس" ، بل إنها تتأنق وتمتاز بلغتها الساحرة المغرية للقارئ، حيث تمارس نوعا من العشق والمحبة للغة، وتصنع من هذا العشق وهذه اللغة أشكالا تعبيرية مريعة ومغرية للقارئ . والأكثر من ذلك أنها – ولاشك – تستمتع وهي تكتب وتبدي نوعا من اللذة والاشتهاء للكلمات والأشياء بغريزة الأنثى التي تعرف قيمة الكلمات المؤثرة.. ويمتد بها الأمر إلى حدود المتعة والسرور بالكلمات وباللغة.

وهي لا تريد أن يخصها هذا الأمر وحدها.. بل إنها تلقي به إلى المتلقي – القارئ– حيث تستدرجه بلغة رائعة ، صافية ، كالحب ، كالمتعة، كالشهية.. تستدرجه إلى ساحات الريع الكلامي، وساحات الحبور والاحتفاء بالكلمات.

أكثر ما يميز كتابتها الروائية هو هذه اللغة الآسرة ، التي تأخذك على حين غرة وتأسرك وتمتعك،وتحاول دائما أن تشبهك، حتى تنال منك .. وتغريك بالمزيد من المتعة والجمال.. فهي منذ الوهلة الأولى تمارس دور "الداندي" (Dandy)

[9] عبد الله حمادي : "ماهية الشعر ".مقدمة ديوان " البرزخ والسكين" .وزارة الثقافة.دمشق 1998 .ص6

الوطن ، والرغبة بالخجل ، والحب بالحلم، والحرائق والعشق، والمقطع على لسان خالد بطل الرواية:

" أكان يمكن أن أصمد طويلا في وجه أنوثتك؟ هاهي سنواتي الخمسون تلتهم شفتيك وهاهي الحمى تنقل إلي وهاأنا أذوب أخيرا في قبلة قسنطينية المذاق، جزائرية الإرتباك.

لا أجمل من حرائقك.. باردة قبل الغربة لو تدرين، باردة تلك الشفاه الكثيرة الحمرة والقليلة الدفء...

دعيني أتزود منك لسنوات الصقيع. دعيني أخبئ رأسي في عنقك. أختبئ طفلا حزينا في حضنك.

دعيني أسرق من العمر الهارب لحظة واحدة ، وأحلم أن كل هذه المساحات المحرقة.. لي!

فا حريقيني عشقا قسنطينة!

شهيتين شفتاك كانتا ، كحبات توت نضجت على مهل. عبقا جسدك كان ، كشجرة ياسمين تفتحت على عجل.

جائع أنا إليك .. عمر من الظمأ والانتظار . عمر من العقد والحواجز والتناقضات. عمر من الرغبة ومن الخجل، من القيم الموروثة، ومن الرغبات المكبوتة.عمر من الارتباك والنفاق

على شفتيك رحت ألملم شتات عمري..

وهذا النص الأخير أبلغ مثال على عنوان المداخلة وأشد تأكيدا على ما ذهبنا إليه.